

صورة الشهيد في شعر محمود درويش  
د. إبراهيم منصور محمد الياسين

تاريخ القبول: 2010/3/17

تاريخ تقديم البحث: 2009/5/21

ملخص

تسعى هذه الدراسة للكشف عن "صورة الشهيد" في شعر محمود درويش، باعتبارها صورة إنسانية، عاينها الشاعر، ورصد أبعادها.

وقد تناول البحث محورين أساسيين هما:

الأول: معنى الشهادة وقيمتها في شعر درويش.

الثاني: صورة الشهيد في شعر درويش.

وتبين أن درويشاً اهتم بصورة الشهيد اهتماماً بالغاً؛ فأبرز من خلالها فضل الشهادة وقيمتها، ودور الشهداء في دفع مسيرة النضال، وتحريك الثورة من أجل الاستقلال، وبناء الذات الفلسطينية على الأرض الفلسطينية. وقد وظف الشاعر أجزاء من تلك الصورة: كصورة الجسد، والدم، والجرح؛ لتكون رموزاً خصبة للحياة، والبعث، واستمرار المقاومة. واستعان لرسم تلك الصورة ببعض الأساطير القديمة ذات الطابع الديني والحضاري، كأسطورة: المسيح أو الصليب، وطائر الفينيق أو العنقاء، وأوزيريس.

الكلمات الدالة: صورة الجسد، صورة الدم، صورة الجرح.

Abstract

The Image of the Martyr in Mahmoud Darwish's Poetry

The present study aims to explore the image of the martyr in the poetry of Mahmoud Darwish.

The study covers the following issues:

- The meaning of martyrdom and its value in Darwish's poetry.
- The image of the martyr in Darwish's poetry.

The paper argues that Darwish has paid great attention to the martyr image. He has projected the virtues of martyrdom and its role in stirring resistance and revolution for independence and the construction of the self on Palestinian land. The poet has vividly employed parts of that image like body, blood, and injury to be symbols of fertility, life, resurrection, and continuation of resistance.

Old mythology too was made use of particularly Jesus Christ, the Cross the Phoenix, and Osiris.

**Keywords:** The images of body, blood, and injury.

مقدمة

استطاع محمود درويش أن يرسم لنفسه مساراً شعرياً خاصاً، يميزه عن غيره من شعراء الأرض المحتلة، واتخذ شعره وسيلة للتعبير عن هموم شعبه وقضاياها؛ لإيمانه الشديد بأن الشعر يمكن أن يُغيّر العالم أو على الأقل يستطيع أن يقضي على الاحتلال. وقد كان لوجود الشاعر في وطنه، ومعايشته اليومية لواقع الاحتلال، وما يرتكبه من مجازر بشعة، وانتهاكات صارخة لحقوق الإنسان كبير الأثر في شعره، إذ حرص على تصوير ذلك الواقع تصويراً دقيقاً، ودعا إلى المقاومة، والنضال، وطلب الشهادة من أجل التحرير، وإعادة البناء.

تسعى هذه الدراسة للكشف عن "صورة الشهيد" في شعر درويش، باعتبارها صورة إنسانية، عاينها الشاعر، ورصد أبعادها، واهتم بها اهتماماً كبيراً؛ فجسد من خلالها فضل الشهادة وقيمتها، ودور الشهداء في دفع مسيرة النضال، وتحريك الثورة من أجل الاستقلال، وبناء الذات الفلسطينية على الأرض الفلسطينية. كما وظف الشاعر أجزاء من تلك الصورة كصورة الجسد، والدم، والجرح؛ لتكون رموزاً خصبة للحياة، والبعث، واستمرار المقاومة.

أولاً: معنى الشهادة وقيمتها في شعر درويش

لقد أدرك محمود درويش معنى الشهادة وقيمتها، ومنزلة الشهداء ودورهم في الدفاع عن ثرى الوطن، وعن قيم الأمة ومبادئها وكرامتها، وسعى من خلال شعره إلى بيان تلك القيمة، وإبراز ذلك الدور. فالاستشهاد كما يرى عقيدة مطلقة، وإيمان راسخ في عقل الفلسطيني وقلبه، وهو أصل في وجوده، إذ ليس ثمة حياة بغير بذل الدماء، فإما النصر وإما الشهادة، يقول<sup>(1)</sup>:

أمنتُ بالحرفِ .. إماً ميتاً عَدَمًا

\* قسم اللغة العربية، جامعة الطفيلة التقنية.

حقوق النشر محفوظة لجامعة مؤتة، الكرك، الأردن.

(1) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "ولاء"، من ديوان "أوراق الزيتون"، دار الهدى، ط1، 2003، ص7.

أَوْ ناصِباً لِعَدُوِّي حَبَلٍ مَشْنَقَةٍ  
آمَنْتُ بِالْحَرْفِ نَاراً.. لَا يَضِيرُ إِذَا  
كُنْتُ الرَّمَادَ أَنَا.. أَوْ كَانَ طَاغِيَتِي!  
فَإِنْ سَقَطْتُ.. وَكَفِّي رَافِعٌ عَلِمِي  
سَيَكْتَبُ النَّاسُ فَوْقَ الْقَبْرِ:  
"لَمْ يَمِتْ"

إنّ مفتاح الشّهادة لديه هو الحرف؛ كونه شاعراً يُقاتل بالكلمة/ القصيدة، ويذود بها عن وطنه وأمته. وقد حاول جاهداً أن ينقل من خلالها معاناة شعبه ومأساته إلى العالم؛ وذلك إيماناً منه بأنّ الشعر يمكن أن يُغيّر العالم أو على الأقل يستطيع أن يقضي على الاحتلال، بغض النظر عن النتائج، (آمَنْتُ بِالْحَرْفِ نَاراً.. لَا يَضِيرُ إِذَا كُنْتُ الرَّمَادَ أَنَا.. أَوْ كَانَ طَاغِيَتِي!). إنّه إصرار الشاعر الواضح، ومنهجه البين في الدفاع عن وطنه وأمته. ولعلّ في تكراره لجملة (آمَنْتُ بِالْحَرْفِ) ما يؤكّد ذلك، فهذا دينه ومعتقدده وأسلوبه. وأمّا قوله: (فَإِنْ سَقَطْتُ.. وَكَفِّي رَافِعٌ عَلِمِي، سَيَكْتَبُ النَّاسُ فَوْقَ الْقَبْرِ: "لَمْ يَمِتْ")، فتأكيد على حبّ التضحية والفداء، وعلى حياة الشّهداء في ذاكرة الوطن والناس والأحياء.

ويقول في مرثيته لصديقه الشّهيد "عبد الله"<sup>(1)</sup>:  
عَادَةً، لَا يَخْرُجُ الْمَوْتُ إِلَى النَّزْهَةِ  
لَكِنَّ صَدِيقِي  
كَانَ مَفْتُونًا بِهَا.  
كُلَّ مَسَاءٍ  
يَتَدَلَّى جِسْمُهُ، كَالْغُصْنِ، مِنْ كُلِّ الشُّقُوقِ  
وَأَنَا أَفْتَحُ شُبَاكِي  
لِكِي يَدْخُلَ عَبْدُ اللَّهِ  
يِي يَجْمَعُنِي بِالْأَنْبِيَاءِ!..

هنا ربط درويش بين الشّهادة والأسطورة والمنطق الإسلامي الديني، أي إنّ الشّهيد حيّ وفق الخطاب الديني، وإنّه حين يتجسّد أمام الشاعر، ويتدلّى من كلّ الشقوق، يستطيع بحضوره الدائم، ورفقته للأنبياء أن يخلق أسطورة الشاعر؛ لأنّه يزوره في المساء، فيصبح جسراً يستحضر معه أولئك الأنبياء، فيمتلك الشاعر بذلك طاقةً أسطورية، تُؤهله من خلال "عبد الله" أن يرى الأنبياء، ويجتمع بهم. فالشاعر يجعل قصة استشهاد صديقه "عبد الله" أسطورة، بحيث يتلبّس ذلك الحدث الواقعي بروح أسطورية خاصة. وهذا الأسلوب - كما يرى وليد منير - "يمثّل أعلى مستويات الفاعلية الوظيفية في بنية التعبير الشعري عند "محمود درويش"؛ فالواقع هنا يتشرب بالأسطورة والسحر دون أن يعتمد موروثاً أسطورياً حكائياً بعينه، ومن ثمّ فالشاعر هو الذي يُخلق أسطوره الخاصة بدءاً من حدث أو نموذج أو واقعة في الحياة"<sup>(2)</sup>. كما يؤكّد درويش أنّ الشّهيد حاضرٌ بين أهله وأحبّته وأصدقائه وأمته، وهو "حضور قبل الرحيل وبعده، إنّه ضوء على الدرب يغيب لكننا لا نغيب معه، بل نوقد فتديلاً جديداً للطريق"<sup>(3)</sup>. فحضوره تجدد الحياة، وغيابه موتان: موت للموت وموت للحياة، حيث يقول<sup>(4)</sup>:

وَالآنَ أَشْهَدُ أَنَّ حُضُورَكَ مَوْتُ  
وَأَنْ غِيَابَكَ مَوْتَانُ

فالشّهداء - كما يرى درويش - لا يموتون، بل "يذهبون إلى النوم"<sup>(5)</sup>، وسرعان ما يفيقون على أحلامهم ورؤاهم؛ لذا فاستشهادهم جسر للحياة، وطريق للنصر، وسبيل للتحرير، وإنّ النصر موتٌ/ استشهادٌ، والموت/ الاستشهاد نصرٌ؛ فلا بدّ من بطل يموت لتكبر الرُّؤيا/ الحلم، ولا بدّ من بطلٍ يخترع على سياج النصر في أوج النشيد<sup>(6)</sup>. وهنا يصبح الموت بالنسبة للشاعر معاشية الحياة؛ لأنّ هناك فعلاً قائماً هو فعل الموت والشّهادة. والموت الذي يعنيه ليس الموت العادي، ولكنه الموت الذي يتم بناءً على فعل المواجهة، أو المقاومة. إنّه قوة حركية فاعلة في المجتمع<sup>(7)</sup>، وبه يكون بناء الأوطان، وتحقيق الأهداف، حيث يقول في قصيدة بعنوان "وعاد.. في كفن"<sup>(8)</sup>:

يَا أَصْدِقَاءَ الرَّاحِلِ الْبَعِيدِ  
لَا تَسْأَلُوا: مَتَى يَعُودُ  
لَا تَسْأَلُوا كَثِيرًا

(1) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أه.. عبد الله"، من ديوان "العصافير تموت في الليل"، ص125، وانظر: ص211، 325.

(2) منير، وليد، نص الهويّة: قراءة في "محمود درويش"، الشركة الدولية للطباعة، القاهرة، ط1، 2003، ص90.

(3) الكركي، خالد، حماسة الشّهداء: رؤية الشّهادة والشهيد في الشعر العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1998، ص324.

(4) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "موت آخر.. وأحبك"، من ديوان "محاولة رقم 7"، ص256، وانظر: ص169، 130.

(5) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "عندما يذهب الشّهداء إلى النوم"، من ديوان "ورد أقل"، ص495.

(6) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "مأساة الترجس لمهارة الفضة"، من ديوان "أرى ما أريد"، ص532، وص537-538.

(7) انظر: النابلسي، شاعر، مجنون التراب: دراسة في شعر وفكر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1987، ص405-412، وللمزيد عن موضوع الموت والحياة في شعر درويش انظر: الكركي، حماسة الشّهداء: رؤية الشّهادة والشهيد في الشعر العربي الحديث، ص323-324، وأبو حميدة، محمد، الخطاب الشعري

عند محمود درويش: دراسة أسلوبية، مكتبة المجدد، غزة، ط1، 2000، ص110-113.

(8) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "وعاد.. في كفن"، من ديوان "أوراق الزيتون"، ص13.

بَلِ اسْأَلُوا: مَتَى  
يَسْتَيْقِظُ الرَّجَالُ!

فدرويش يُخاطب أصدقاء الشَّهيد، الراحل إلى حياة الموت، ويطلب منهم ألا يسألوا عن مصيره، لأنَّه معروف، ولكن عليهم أن يسألوا عن حال أولئك الميِّتِينَ في الحياة كأنَّهم نيام، فمتى يستيقظون من موتهم؛ لكي يلحقوا بهذا الراحل إلى حياته الهدف؟ ويرى الشاعر أنَّ الموت على الأرض الفلسطينية أصبح فعلاً مُطَبَّأً متكرراً، ألَّفه الفلسطيني، وتعود عليه؛ لأنَّه يتكرر أمامه في كلِّ لحظة، وفي كلِّ يوم، فصار يُباعه ويُبَارِه، ويعرف كلُّ أنواعه وأشكاله، حيث يقول في ذكرى الشَّهيد "عز الدين قلبي"<sup>(1)</sup>:

يَلْعَبُ الْمَوْتُ، يَا لِفُتَاهِهِ، وَيُبَارِيهِ. يَغْرِفُهُ جَيْدًا وَيَعْرِفُ كُلَّ مَرَايَاهُ،  
يَشْرَحُ أَنْوَاعَهُ: طَلَّقَهُ فِي الْجَبِينِ فَأَسْفُطَ كَالنُّسْرِ قَوْقَ السُّفُوحِ؛  
وَقُنْبَلَةً تَحْتَ سَيَّارَتِي فَتَطِيرُ ذِرَاعًا إِلَى الشَّرَفَاتِ وَتَكْسِرُ آيَةَ  
الرَّهْرِ أَوْ شَاشَةَ التِّلْفِزِيِّونَ؛  
قُنْبَلَةً تَحْتَ طَاوِلَةٍ أَوْ رَصَاصَ عَلَى الظَّهْرِ أَوْ طَلَّقَهُ تَحْتَ حُنْجَرَتِي  
هَكَذَا الْمَوْتُ، أَبَسَطَ مِمَّا تَنْظُرُ

أَيُوجِعُ؟

فهو يَصوِّرُ مأساة شعبه، ومعاناته اليومية؛ ليكشف عن المفارقة الكبرى ما بين الفلسطيني، الذي أصبح الموت أمراً عادياً ومتوقَّعاً في أيِّ لحظة من حياته، والآخر، الذي يرى الموت أمراً جليلاً، يخاف منه ويرهبه. ومما يُعَمِّقُ تلك المفارقة ويوضِّحها قول الشاعر: (هَكَذَا الْمَوْتُ، أَبَسَطَ مِمَّا تَنْظُرُ) بعد شرحه لأنواعه وفنونه المرعبة، التي يُمارسها العدو مراراً ضدَّ شعبه: (طَلَّقَهُ فِي الْجَبِينِ، وَطَلَّقَهُ تَحْتَ الْحُنْجَرَةِ، وَرَصَاصَ عَلَى الظَّهْرِ، وَقُنْبَلَةً تَحْتَ السَّيَّارَةِ، وَقُنْبَلَةً تَحْتَ الطَّاوِلَةِ...)، وكذلك استفهامه، الذي يحمل معاني التهكُّم والسخرية (أَيُوجِعُ؟). إنَّ الموت بهذه الطرق أو غيرها صعب ومُوجِع حتماً، وإنَّ العاديَّة أو الألفة هنا لا تعني استسهال الأمر بمقدار ما تكشف المأساة، التي اضطرَّ الفلسطيني أن يتعود عليها. فالموت إذًا حالة يومية معادة، وقوافل الشَّهداء متواصلة متجددة، ينضمُّ إليها في كلِّ يوم العشرات من كلِّ الأعمار رجالاً ونساءً، أفراداً وجماعات، فثمة طفلٌ مَمَزَّقُ الجسد، وفتى مقطَّع الأوصال، وجمَّة شبيخٌ تناثرت أشلاؤه، وفتاةٌ تغترب ملامح وجهها<sup>(2)</sup>؛ ولذا راح درويش يطلب من "أمِّ الشَّهيد" ألا تبكي عليه كثيراً، وتدخر دموعها لغيره، فقد يموت في غدِّ أبوه، أو أخوه، أو صديقه، يقول<sup>(3)</sup>:

يَا أُمَّهُ!  
لَا تَقْلَعِي الدُّمُوعَ مِنْ جُدْرِيهَا!  
خَلِّي بَيْتَ الْقَلْبِ دَمْعَتَيْنِ!  
فَقَدْ يَمُوتُ فِي غَدِّ أَبُوهُ.. أَوْ أَخُوهُ  
أَوْ صَدِيقُهُ أَنَا

خَلِّي لَنَا..

لِلْمَيِّتِينَ فِي غَدِّ لَوْ دَمْعَتَيْنِ.. دَمْعَتَيْنِ!

وهذا يكشف المأساة أكثر حين ينظر الشاعر بعين مدققة أنَّ الموت دائم، ولن يترك أحداً. إنَّه لا يبخل بالدمع؛ لأنَّ الموت سينتهي، ولكن؛ لأنَّه يرى الموت يحصد أرواح شعبه كلَّهم، وكأنَّه قدر مسلَّط عليهم، والدمع دائم الجريان بسبب ذلك.

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان "المناديل"<sup>(4)</sup>:

وَتَعَوَّدِي مَا دُمَّتْ لِي  
مَوْتِي... وَأَحْزَانُ الْبِعَادِ!

.....

مَا لِي سَوَى عَيْنَيْكَ، لَا تَبْكِي

عَلَى مَوْتِ مُعَادٍ

لقد تعود الفلسطينيون الموت، وصاروا يُمارسونه طقساً يومياً متواصلاً؛ لذا راح الشاعر يُوصي حبيبته بأن تتعود موتها، وأحزان بعباده، وألاً تبكي عليه؛ لأنَّ موته/ استشهاده ليس نهايته، بل هو الأصل في وجوده، وحياته، وانتصاره.

وقد صوَّرَ الشاعر المذابح والمجازر التي ارتكبتها العدو الصهيوني على أرض فلسطين، كـمذبحتي "كفر قاسم" و"تلِّ الزَّعتر"، ومجزرة "يوم الأرض"، التي راح ضحيتها خمس فتيات في المدرسة الابتدائية<sup>(5)</sup>، واتَّخذها وسيلة للذَّعوة إلى المقاومة والنضال، وحبِّ الاستشهاد، وبذل المزيد من الدماء الزكية؛ من أجل تطهير الأرض، ورفع القهر، والظلم، والعدوان، ومنحها أبعاداً فنية؛ ليُظهر من خلالها قوَّة الشَّهداء، وبسالتهم، ودورهم

(1) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "الحوار الأخير في باريس"، من ديوان "حصار لمذبح البحر"، ص 403.

(2) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 13، 172، 211، 320، 321، 757.

(3) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "وعاد.. في كفن"، من ديوان "أوراق الزيتون"، ص 13.

(4) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "المناديل"، من ديوان "عاشق من فلسطين"، ص 61-62، وانظر: ص 205.

(5) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 99-105، وص 304-305، وص 316-324.

الحقيقي في المقاومة، والثورة، والتغيير من جهة، وعنف العدو، ووحشيته، واستبداده، وظلمه من جهة أخرى. فهو كما يقول خالد الكركي يقرأ الرحيل في سياق اللحظة التاريخية الصعبة لها<sup>(1)</sup>، حيث يقول في قصيدته "أزهار الدم"<sup>(2)</sup>:

يَا كُفْرَ قَاسِمٍ!  
مِنْ تَوَابِيْتِ الضَّحَايَا، سَوْفَ يَعْلُو  
عَلْمٌ يَقُولُ: قِفُوا! قِفُوا!  
وَاسْتَوْقِفُوا!

لا، لا تَدْلُوا!  
دَيْنُ الْعَوَاصِفِ أَنْتَ قَدْ سَدَدْتَهُ،  
وَأَنْهَارَ ظُلِّ

فهو يُصوِّرُ هذه المأساة المؤلمة، ويرويها بكل تفاصيلها وحيثياتها على مسمع العالم؛ ليجعل منها ملحمة تراجيدية، تُجسِّدُ معاناة شعبه ووطنه من جهة، وتؤكد حالة الحضور الفلسطيني الشامل في وعي العالم من جهة أخرى. فحياة الفلسطينيين إذاً رحلة شاقّة مريرة، مليئة بالماكابدة والألم. فهم لا يعرفون معنى الفرح، ويتمنون أن يذوقوا طعمه ولو مرّة واحدة، يقول<sup>(3)</sup>:

هَلْ نُسِيءُ إِلَى أَحَدٍ؟ هَلْ نُسِيءُ إِلَى  
بَلَدٍ، لَوْ أَصْبْنَا، وَلَوْ مِنْ بَعِيدٍ،  
وَلَوْ مَرَّةً، بَرْدَاذِ الْفَرْخِ؟

إنّ الشهادة عرس دموي لا ينتهي؛ والشهداء يحملون مقابرهم على أكفهم، ويشترون تذاكر للموت، ثم يسرون في مهمتهم بخطى ثابتة مزغردة كأنهم ذاهبون إلى العرس/ إلى الحياة، وإلى الموت الجميل<sup>(4)</sup>، حيث يقول<sup>(5)</sup>:

هَذَا هُوَ الْعَرْسُ الَّذِي لَا يَنْتَهِي  
فِي سَاحَةِ لَا تَنْتَهِي  
فِي لَيْلَةٍ لَا تَنْتَهِي..  
هَذَا هُوَ الْعَرْسُ الْفِلِسْطِينِي  
لَا يَصِلُ الْحَبِيبُ إِلَى الْحَبِيبِ  
إِلَّا شَهِيدًا أَوْ شَرِيدًا

وهي أيضاً سلم الغد، وطريق التحرير، ومفتاح الرضوان. بها "تُبِيدُ الغزاة"<sup>(6)</sup>، ونصنع التاريخ والمجد، ونُعلي صروح المستقبل، ونفتح باب الجنة، يقول<sup>(7)</sup>:

سَنَصْنَعُ مِنْ مَسَانِقِنَا  
وَمِنْ صُلْبَانِ حَاضِرِنَا وَمَاضِينَا  
سَلَالِمَ لِلْغَدِ الْمَوْعُودِ  
ثُمَّ نَصْبِحُ: يَا رُضْوَانُ!  
أَفْتَحُ بَابَكَ الْمَوْصُودُ!

هذا هو الوعي الدرويشي للشهادة وفضلها، ومنزلة الشهداء ومكانتهم. وقد تجلّى بصورة واضحة في الحوارات الهاتفية الخيالية، التي أجزاها الشاعر بينه وبين أنبياء الديانات المختلفة: اليهودية، والمسيحية، والإسلامية؛ إذ تحدّث مع "حقوق" أحد أنبياء اليهود، الذين جاء ذكرهم في العهد القديم كثنائر على اليهود<sup>(8)</sup>، ومع السيد "المسيح"، ومع نبينا "محمد" - عليهما السلام - وبين لهم مأساة شعبه، ومعاناته اليومية، وما يمارسه اليهود بحقّه، طالباً منهم الرأي والمشورة؛ فأجابه "حقوق" بقوله: "كفّي يا ابني! على قلبي حكايتكم على قلبي سكاكين"، وأجابه "المسيح" قائلاً: "أماماً أُنْهَى الْبَسْرُ!"، وأما "محمد" - عليه السلام - فأجابه بقوله<sup>(9)</sup>:

تَحَدَّ السُّجْنَ وَالسَّجَانَ  
فَإِنَّ خَلَاوَةَ الْإِيمَانِ  
تُذِيبُ مَرَارَةَ الْحَنْظَلِ!

(1) انظر: الكركي، حماسة الشهداء: رؤية الشهادة والشهيد في الشعر العربي الحديث، ص 323.

(2) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أزهار الدم - عيون الموق على الأبواب"، من ديوان "آخر الليل"، ص 105.

(3) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "حالة حصار"، ص 756.

(4) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 251، 201، 169، 233.

(5) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "طوبى لشيء لم يصل!"، من ديوان "محاولة رقم 7"، ص 248.

(6) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 217.

(7) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "نشيد"، من ديوان "عاشق من فلسطين"، ص 72.

(8) انظر: الكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، 1997، سفر حقوق، الإصحاح الثالث، ص 1332، والنقاش، رجاء، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1971، ص 219.

(9) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "نشيد"، من ديوان "عاشق من فلسطين"، ص 76.

فهذه الروح الجهادية/ روح التضحية والفداء/ روح التحدي والمقاومة هي ما دعت إليه الأديان السماوية؛ لرفع الظلم والطغيان، والدفاع عن الأوطان. و"بهذه الصورة النبيلة الثائرة المتمردة يفهم درويش الدين ويربط بينه وبين الثورة برابط نهائي وثيق، فالدين ثورة، ورفض للظلم، ودعوة للبطولة والنضال ضد أعداء الإنسان، إن الدين قوة تشعل الثورة والمقاومة، ولا تدعو إلى التسليم والرضا بمرارة الواقع المظلم"<sup>(1)</sup>.

### ثانياً: صورة الشهيد في شعر درويش

لقد رسم درويش "للشهداء" صورة واضحة المعالم، سعى من خلالها إلى تمجيدهم، وتأسيس قيم الشهادة في أرواحهم، وتعميق حب الاستشهاد في نفوس المتطلعين إلى الخلود والمجد. ووظف أجزاء من تلك الصورة كصورة الجسد، والدم، والجرح؛ لتكون رموزاً خصبة للحياة، والبعث، واستمرار المقاومة، والدفاع عن الأرض؛ من أجل التحرير، وتحقيق الاستقلال، وبناء الذات الفلسطينية.

#### 1- صورة الجسد

احتفى درويش بالشهيد، ورسم له صوراً متعددة تنبض بالحياة، وتفيض بالخصوبة، لعل أبرزها أنه تصوّر سنبله/ بذرة تُغرس في رحم الأرض؛ لتؤد السنبال، التي ستملأ الأودية، والمروج، والحقول، والبساتين بالخير والعتاء، يقول<sup>(2)</sup>:

وَحُبُوبٌ سُنْبَلَةٌ تَهْوَت  
سَتَمَلُّ الْوَادِي سَنَابِلٌ..!

إن هذه السنبله/ الحبة هي هدية الأجداد للأحفاد<sup>(3)</sup>، التي تحمل لهم البشر والأمل. فالأجداد/ الشهداء يزرعون أجسادهم في الترى، و"يبدرون فيها سماء"<sup>(4)</sup>، والأحفاد "يحصدون القمح من ذاكرة الماضي"<sup>(5)</sup>. وهكذا تستمر رحلة البطولة والفداء، ويتوالد الشهداء ويتكاثرون، ويأتون من بعضهم إلى بعضهم؛ حتى "يولد في الزمن العربي.. نهار"، ويتحقق الحلم بالحرية والتحرير، حيث يقول<sup>(6)</sup>:

أَعِدُّ لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُ..  
وَيَنْشَقُّ فِي جُنَّتِي قَمَرٌ.. سَاعَةَ الصُّفْرِ دَقَّتْ،  
وَفِي جُنَّتِي حَبَّةٌ أَتَيْتُ لِلْسَنَابِلِ  
سَبْعَ سَنَابِلِ، فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ أَلْفُ سُنْبَلَةٍ..  
هَذِهِ جُنَّتِي.. أَفْرِغُوهَا مِنَ الْقَمَحِ ثُمَّ خُدُّوهَا إِلَى الْحَرْبِ  
كَيْ أَنْهِيَ الْحَرْبَ بَيْنِي وَبَيْنِي  
خُدُّوهَا، أَحْرِقُوهَا بِأَعْدَائِهَا  
خُدُّوهَا لِيَتَسَّخَّرَ الْفَرْقُ بَيْنِي وَبَيْنَ أَتَهَامِي  
وَأَمْشِي أَمَامِي  
وَيُؤَلِّدُ فِي الزَّمَنِ الْعَرَبِيِّ... نَهَار.

فدرويش يهتم بالرمز، ويمنحه أبعاداً دلالية رحية؛ فالشهاد (الحبة/ البذرة) تتوالد وتتكاثر فتنتب سبع سنابل، وفي كل سنبله ألف سنبله، ثم تتحول تلك الحبة كذيفة ملتتهية، تحرق الأعداء وتدمرهم، وتضع حداً لاتهم الفلسطيني بالتقاعس، والتخاذل، وتجعله متطلعاً إلى الأمام (وَأَمْشِي أَمَامِي)، وساعياً لتحقيق المجد والحرية (وَيُؤَلِّدُ فِي الزَّمَنِ الْعَرَبِيِّ... نَهَار).

فالشاعر يوسع دائرة الرمز في نصه، ويضيف إليه صوراً جديدة، معتمداً على ثقافته الدينية (أَعِدُّ لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُ، وفي كُلِّ سُنْبَلَةٍ أَلْفُ سُنْبَلَةٍ). وعلى خبراته الإنسانية، وتجاربه القديمة عن الاستمرار والتوالد (أَتَيْتُ لِلْسَنَابِلِ، وَأَفْرِغُوهَا مِنَ الْقَمَحِ)، وعلى تخليقه للأسطورة، أسطورة العربي، الذي يخرج من ذاته الميته؛ ليولد فينقياً جديداً (يَنْشَقُّ فِي جُنَّتِي قَمَرٌ، وَأَحْرِقُوهَا بِأَعْدَائِهَا).

والشهداء سنابل معطرة أظهر من عطر الورد<sup>(7)</sup>، لا تموت ولا تجف. والأرض تلتذذ بامتصاص جلودهم، ودمائهم؛ لتبعثها من جديد قمحاً/ رمز الخير والعتاء، وكواكب/ رمز الأمل والنور<sup>(8)</sup>. فهم حياة متجددة، وبعثهم بعث الأمة، وهي صورة متكررة عند درويش، حيث يقول<sup>(9)</sup>:

هَذِهِ الْأَرْضُ الَّتِي تَمْتَصُّ جِلْدَ الشُّهَدَاءِ  
تَعْدُ الصَّيْفَ بِقَمَحٍ وَكَوَاكِبٍ  
فَاعْبُدِيهَا!  
نَحْنُ فِي أَحْشَائِهَا مِلْحٌ وَمَاءٌ  
وَعَلَى أَحْصَانِهَا جُرْحٌ.. يُحَارِبُ

(1) النقاش، محمود درويش شاعر الأرض المحتلة، ص222.

(2) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "عن إنسان"، من ديوان "أوراق الزيتون"، ص9.

(3) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص77.

(4) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص126.

(5) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص191.

(6) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "طريق دمشق"، من ديوان "محاولة رقم 7"، ص271، وانظر: ص282.

(7) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص22.

(8) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص167.

(9) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "يوميات جرح فلسطيني"، من ديوان "حبيبي تهض من نومها"، ص167، وانظر: ص99، 100، 111، 117، 311، 320، 326.

وقد شبه الشاعر الشهداء بالنجوم، والكواكب، والأقمار، والشمس، وأعمدة الضياء، والصبح<sup>(1)</sup>، وكلها صور علوية مضيئة تُبرز علو منزلة الشهداء، ورفعة مكانتهم وإشراقهم. فهم منارات عزّ ومجد وكبرياء، نُضيء سماء الوطن، وتهدي الأجيال القادمة نحو مستقبل مشرق بالأمل والتفاؤل، حيث يقول في رثاء "أحمد الزعتر"<sup>(2)</sup>:

رَاحَ أَحْمَدُ بَلَّتَقِي بِضُلُوعِهِ وَيَدِيهِ  
كَانَ الْخَطُوءَ - النَّجْمَةَ

والتفت درويش إلى جسد الشهيد؛ فرسم ملامحه وهو مسجّى، وبين آثار القتل فيه، وتصوره أرضاً ومدينةً، ومخيماً، وسوراً، وحدود نار<sup>(3)</sup>. كما التفت إلى أعضائه وصورها تصويراً دقيقاً؛ فوجهه وجه إله، وزنده أو ساعده شارع، وأصابعه مركب، وخطاه بيت وشمس<sup>(4)</sup>. ينبت في صدره سيل من الأشجار، وينشق من جبهته سيف الضياء، وينبع من يده ماء النهر، ويُعبد من لحمه شارع المستقبل الصاعد<sup>(5)</sup>، يقول<sup>(6)</sup>:

كَانَ الْمُخَيِّمُ جِسْمَ أَحْمَدُ  
كَانَتْ دِمَشْقُ جُفُونِ أَحْمَدُ  
كَانَ الْجَارُ ظِلَالِ أَحْمَدُ  
صَارَ الْحَصَارُ مُرُورَ أَحْمَدَ فَوْقَ أَفْتِدَةِ الْمَلَائِينِ  
الْأَسِيرَةِ

صَارَ الْحَصَارُ هُجُومَ أَحْمَدُ  
وَالْبَحْرُ طَلَقْتَهُ الْأَخِيرَةَ!

ويقول في قصيدة أخرى<sup>(7)</sup>:

سَيْلٌ مِنَ الْأَشْجَارِ فِي صَدْرِي  
أَتَيْتُ... أَتَيْتُ

سِيرُوا فِي شَوَارِعِ سَاعِدِي تَصَلُّوا

إنّ جسد الشهيد قد توحد بالأرض، فصار مثلها، يحمل الخير، ويُنبت الأشجار والثمار، وصار ساعده نهراً يتدفق بالحياة، وشارعاً يمرّ فيه طلاب المجد والعز؛ كي يصلوا إلى ما وصل إليه. فدرويش يؤسّر المكونات البسيطة، ويرفعها على مستوى الفاعلية.

وقد استعان الشاعر لرسم صورة الشهيد ببعض الأساطير القديمة ذات الطابع الديني والحضاري، كأسطورة: المسيح أو الصليب، وطائر الفينيق أو العنقاء، وأوزيريس. وهي أساطير تمثل روح الانبعاث، والتجدد، والحياة<sup>(8)</sup>. فالشَّهيد كما يُصوّر "المسيح"، الذي "يخرج من الجرح والريح أخضر مثل النبات"<sup>(9)</sup>، وصليب البلاد وكلّ المدن الفلسطينية، الذي يتحامل على جراحه وآلامه، ويُضحّي بنفسه، ويُقاتل من أجل حياة الآخرين، حيث يقول في قصيدته "صلاة أخيرة"<sup>(10)</sup>:

يُحَيِّئُ لِي يَا صَلِيبَ بِلَادِي

سَتُحْرِقُ يَوْمًا

وَتُضَيِّحُ ذِكْرِي وَوَشْمًا

وَحِينَ سَيَنْزِلُ عَنْكَ رَمَادِي

سَتَضْحَكُ عَيْنُ الْقَدَرِ

وَتَعْمَرُ: مَا تَا مَعًا

(1) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 99، 305، 527، 104، 752، 167، 129، 101، 193.

(2) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أحمد الزعتر"، من ديوان "أعراس"، ص 305.

(3) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 8، 103، 13، 537، 324، 406، 122، 308، 305، 193.

(4) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 232، 167، 406، 251، 71، 532.

(5) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 174، 75.

(6) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أحمد الزعتر"، من ديوان "أعراس"، ص 308-309.

(7) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "الخروج من ساحل المتوسط"، من ديوان "محاولة رقم 7"، ص 232.

(8) للمزيد عن هذه الأساطير ورموزها انظر: عبد الحكيم، شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، ط 1، 1982، وخير بك، كمال، حركة الحدائث في

الشعر العربي المعاصر: دراسة حول الإطار الاجتماعي-الثقافي للاتجاهات والبنى الأدبية، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط 2، 1986، وحلاوي، يوسف، الأسطورة في الشعر

العربي المعاصر، دار الآداب، ط 1، 1994، وغنيم، غسان، الرمز في الشعر الفلسطيني الحديث والمعاصر، دار العائدي للدراسات والنشر، دمشق، ط 1، 2001، وشعث، أحمد

جير، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر، مكتبة القادسية، فلسطين، ط 1، 2002.

(9) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 318.

(10) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "صلاة أخيرة"، من ديوان "عاشق من فلسطين"، ص 78.

وهذا "الصليب" هو الطريق الطويل، والجسر الممتد من البداية إلى النهاية لحياة الفلسطينيين، يعلمهم لون القرنفل، والبطولة، والفداء. إنه الماضي، والحاضر، والمستقبل، والأساس في بناء المدن، وتعمير الأرض، يقول في قصيدته "قاع المدينة"<sup>(1)</sup>:

شُكْرًا - صَلِيبَ مَدِينَتِي  
شُكْرًا..  
لَقَدْ عَلَّمْتَنَا لَوْنَ الْقُرْنُفْلِ وَالْبُطُولَةَ  
يَا جِسْرَنَا الْمُمتدَّ مِنْ فَرْحِ الطُّفُولَةِ -  
يَا صَلِيبَ - إِلَى الْكُهُولَةِ  
الآن،  
نَكْتَشِفُ الْمَدِينَةَ فِيكَ  
أه.. يَا مَدِينَتَنَا الْجَمِيلَةَ!..

وهو طائر الفينيقي / العنقاء، الذي كلما أدركه الهرم يحرق نفسه، ثم ينبعث من رماده فتياً قوياً. فهو رمز التجدد والانبعاث<sup>(2)</sup>، حيث يقول<sup>(3)</sup>:

سَأَصِيرُ يَوْمًا طَائِرًا، وَأَسْأَلُ مِنْ عَدَمِي  
وُجُودِي. كَلِّمًا أَحْتَرِقُ الْجَنَاحَانَ  
أَفْتَرِبُ مِنَ الْحَقِيقَةِ، وَأَنْبَعَثُ مِنْ  
الرَّمَادِ أَنَا حَوَارُ الْحَالِمِينَ، عَزَفْتُ  
عَنْ جَسَدِي وَعَنْ نَفْسِي لِأَكْمَلَ  
رَحْلَتِي الْأُولَى إِلَى الْمُعْنَى، فَأَحْرَقْتَنِي  
وَعَابَ. أَنَا الْعِيَابُ. أَنَا السَّمَاوِي  
الطَّرِيدُ.

فدرويش يُشَبِّهُ الشَّهيدَ بطائر الفينيقي، الذي يبحث عن وجوده، ويحاول أن يسأله من العدم، بحيث يحترق جسده، فيتحوّل إلى رماد؛ لحياتنا ثانية، ويبعث في الأرض الخصب والنماء من جديد. إنه يُضْحِي بنفسه، ويستغني عن جسده من أجل أمته ووطنه؛ لتكتمل مسيرة البناء، ويتحقق الوعد الفلسطيني بالانتصار.

وشهداء درويش ذكوراً وإناثاً يحترقون دائماً، واحتراقهم هو احتراق الفينيقي/ العنقاء، وعودته إلى الحياة من الرماد، واستشهادهم هو إحياء للأرض وإخصاب لها، حيث يقول<sup>(4)</sup>:

أَرَى صَفَاً مِنَ الشُّهَدَاءِ بِنْدَفِعُونَ نَحْوِي، ثُمَّ يَخْتَبِئُونَ فِي  
صَدْرِي وَيَحْتَرِقُونَ.  
مَا فَتَكَ الرِّمَانُ بِهِمْ، فَلَبَسَ لِحْيَتِي حَدًّا. وَلَكِنِّي  
أَحْسُ كَأَنَّ كُلَّ مَعَارِكِ الْعَرَبِ انْتَهَتْ فِي جُنَّتِي،  
وَأَوْدُ لَوْ تَتَمَرَّقُ الْأَيَّامُ فِي لَحْمِي وَيَهْجُرُنِي الرِّمَانُ،  
فَيَهْدَأُ الشُّهَدَاءُ فِي صَدْرِي وَيَتَفَقَّوْنَ  
ويقول في قصيدة أخرى<sup>(5)</sup>:  
كُلَّ يَوْمٍ هَمُوتُ، وَتَحْتَرِقُ الْخُطَاوَاتُ وَتُوَلِّدُ عَنَقَاءَ  
نَاقِصَةً، ثُمَّ نَحْيًا لِنُقْتَلَ ثَانِيَةً.

"فأحمد الزعتر" محروق بالأزرقي يوقد شمعته من جرحه للأزهار<sup>(6)</sup>، و"خديجة" على باب مدرستها الابتدائية مالت مع رفيقاتها نحو الندى فاحترقت أجسادهن<sup>(7)</sup>، ثم تجرت في الأرض الأنهار<sup>(7)</sup>، و"الأم" احترقت أمام طفلتها، وسوف تأتي إليها عند النهار، يقول<sup>(8)</sup>:

الطُّفْلَةُ أَحْتَرَقَتْ أُمَّهَا  
أَمَامَهَا..  
أَحْتَرَقَتْ كَالْمَسَاءِ.  
وَعَلَّمُوهَا: بِصِرِّ اسْمِهَا -  
فِي السَّنَةِ الْقَادِمَةِ -  
سَيِّدَةَ الشُّهَدَاءِ  
وَسَوْفَ تَأْتِي إِلَيْهَا

- (1) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "قاع المدينة"، من ديوان "العصافير يموت في الجليل"، ص 121-122، وانظر: ص 72، 111، 138، 314، 407.
- (2) انظر: حلاوي، الأسطورة في الشعر العربي المعاصر، ص 231، وشعث، الأسطورة في الشعر الفلسطيني المعاصر، ص 80-81.
- (3) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، من الجدارية، ص 710.
- (4) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "الخروج من ساحل المتوسط"، من ديوان "محاولة رقم 7"، ص 232.
- (5) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "سرحان يشرب القهوة في الكافتيريا"، من ديوان "أحبك أو لا أحبك"، ص 221.
- (6) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 306-307.
- (7) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 318-321.
- (8) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "المدينة المحترقة"، من ديوان "أحبك أو لا أحبك"، ص 211.

### إِذَا وَافَقَ الْأَنْبِيَاءُ!

كما أن الشهيد في موته وانبعائه، واتحاده بالأرض والنبات - كما يصوره درويش - رمزاً لأوزيريس، الذي يُعَدُّ ربَّ البعث والانبعاث، وإله الخضر والخصوبة والنماء المصري. وهو النيل، الذي يقترن بالأرض إيزيس، وأول من علّم البشر كيف يزرعون القمح، ويصنعون الدقيق، ويُعدّون الخبز. وعلمهم أسلوب ريّ الأراضي وزراعتها كما تقول الأساطير القديمة<sup>(1)</sup>؛ ولذلك ارتبطت صفات الشهيد عند درويش بالدوال المنتمية لإله الخصب والزراعة؛ فالشَّهيد سنبلةٌ، وبذرةٌ، وقمحٌ، وحنطةٌ، وخبزٌ، ورغيفٌ، وغمصنٌ، وشجرةٌ، وحقْلٌ، وبستانٌ، وعشبٌ تارة، وهو ماءٌ، وغمامٌ، ومطرٌ، ونهرٌ تارة أخرى<sup>(2)</sup>. كما ارتبط فعل الشهادة بالحرث، والزراعة، والغرس، ورشّ البذار والسّماء، والسّقاية، والحصاد<sup>(3)</sup>، وهي أفعال تنبض بالحياة والحركة الفاعلة. ومن هنا أكد الشاعر أن الأرض، والفلاح، والإصرار أقاليم ثلاثة متّحدة، ومتلاحمة لا تقهر، وأنّ الأرض للشّهداء، والشّهداء لها<sup>(4)</sup>.

وقد تجلّت ملامح هذه الأسطورة بشكل واضح في رثاء الشاعر "خديجة"، التي اتّحدت بالأرض، وعانقتها عناق الزّراعيّ في ذروة الحب<sup>(5)</sup>، و"أحمد الزعتر"، الذي تضرّج جسده بالسفوح وبالشموس، ثم ذهب بعيداً في الغمام وفي الزّراعة<sup>(6)</sup>، و"لراشد حسين" ابن فلاح فلسطين، الذي كان حقلاً من بطاطا وذرة، وكان سهلاً كاملاً، فتوحّد مع النيل؛ ليحمل عبء الأرض، وينقذها من الضلال<sup>(7)</sup>، و"إبراهيم مرزوق"، الذي كان شعباً في رغيف، ورسم جسداً مزدحماً بالوطن المطحون في معجزة الخبز<sup>(8)</sup>، و"لماجد أبو شرار" خبز المسيح الصلب، وقُربان حوض الأبيض المتوسط، الذي صار نهراً من الأجساد في واحد<sup>(9)</sup>، و"جمال عبد الناصر"، الذي شبّهه بالسنبلة، والقمح، والماء، والخبز<sup>(10)</sup>. يقول درويش في رثاء "خديجة" ورفيقاتها<sup>(11)</sup>:

أَنَا الْأَرْضُ ...  
يَا أَيُّهَا الدَّاهِبُونَ إِلَى حَبَّةِ الْقَمْحِ فِي مَهْدِهَا  
احْرَثُوا جَسَدِي!  
يَا أَيُّهَا الدَّاهِبُونَ إِلَى جَبَلِ النَّارِ  
مُرُوا عَلَيَّ جَسَدِي  
أَيُّهَا الْعَابِرُونَ عَلَيَّ جَسَدِي  
لَنْ تَمُرُّوا  
أَنَا الْأَرْضُ فِي جَسَدِي

فجسد "خديجة" يتوحّد بالأرض، ويصبحان شيئاً واحداً، وتصيح "خديجة" / الأرض مخاطبة الأجيال القادمة الباحثة عن الحياة، والأمله في التحرير، واستعادة الوطن، وطرد المحتل بأن يحرثوا جسدها، ويمرّوا عليه؛ لأنها أصبحت معادلاً حقيقياً للوطن. إنّها الإنسان والأرض والوطن: وطن الأبياء، والشّهداء، والزارعين، والضائعين.

ويقول في رثاء "أحمد الزعتر"<sup>(12)</sup>:

يَا أَيُّهَا الْمُتَفَرِّجُونَ! تَنَاثَرُوا فِي الصَّمْتِ  
وَابْتَعِدُوا قَلِيلاً عَنْهُ كَيْ تَجِدُوهُ فِيكُمْ  
حَنْطَةً وَيَدَيْنِ عَارِيَتَيْنِ  
وَابْتَعِدُوا قَلِيلاً عَنْهُ كَيْ يَتَلَوَّ وَصَبَّتَهُ  
عَلَى الْمَوْقَى إِذَا مَاتُوا  
وَكَيْ يَرَى مَلَامِحَهُ  
عَلَى الْأَحْيَاءِ إِنْ عَاشُوا

فدرويش يؤسّر صورة الشهيد، ويمنحها أبعاداً رمزية غايتها تكثيف الصورة وتقويتها. فالشّهداء يصنعون تاريخ أمّتهم ببطولاتهم وتضحياتهم، وينسجون بها قصصاً أشبه بالأساطير القديمة في ديمومتها واخضرارها.

وقد رسم الشاعر للشّهاد صورة بصرية اختار لها اللون "الأخضر"، وهذا الاختيار يدخل في إطار رؤيته، التي ينطلق منها في إبراز قيمة الشّهادة، وخصوبتها، واستمرارها. وقد أصبح هذا اللون من أغنى الرموز اللغوية التي وظّفها درويش في شعره، وأخضعها بما تحمله من دلالات

(1) انظر: خشيم، علي فهمي، آلهة مصر العربية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص1م314، وتيبو، روبير جاك، موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية، ترجمة: فاطمة عبد الله محمود، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2004، ص58، وعبد الحكيم، شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ص75-76، وبدج، واليس، الديانة الفرعونية، ترجمة: نهاد خياطة، دار علاء الدين، دمشق، ط2، 1993، ص51-89.

(2) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص9، 99، 101، 125، 126، 129، 130، 166، 172، 236، 271، 282، 299، 310، 316، 320، 325، 326، 366، 754، 759، 318، 408، 527، 759.

(3) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص77، 99، 100، 105، 126، 130، 191، 310، 324.

(4) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص22، 236، 474.

(5) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص321.

(6) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص309-310.

(7) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص299-303.

(8) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص316.

(9) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص407-408.

(10) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص175-176.

(11) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "قصيدة الأرض"، من ديوان "أعراس"، ص324.

(12) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أحمد الزعتر"، من ديوان "أعراس"، ص311-312.

موروثه أو مستحدثة لنصوصه الشعرية بما يتفق مع رؤيته، وينسجم مع أفكاره ومشاعره، وكما يُقال "فإن الشاعر إذ يندمج في الأشياء يُضفي عليها مشاعره. وقد قبل ذات يوم إنَّ الفنان يُلَوِّن الأشياء بدمه"<sup>(1)</sup>.

إنَّ اللون "الأخضر" في موروثنا الديني يرمز إلى "الخير والخصب والتماء والتجدد والعتاء، ويحمل بُعداً روحياً خاصاً لاتصاله بالنعيم والجنة في الآخرة"<sup>(2)</sup>، ويدلُّ في الأديان الأخرى على "الإخلاص والخلود والتأمل الروحي، والبعث"<sup>(3)</sup>. وقد استخدمه درويش في خطابه الشعري في سياقات متنوعة ومتعددة<sup>(4)</sup>، لعلَّ أبرزها أنه استخدمه في إطار حديثه عن الشهادة والشهداء، حيث كَرَّرَ لفظة "الأخضر" في نشيده للشهيد أربعاً وعشرين مرة؛ وذلك لتكثيف الدلالة، وتعميق المعنى، يقول<sup>(5)</sup>:

إِنَّكَ الْأَخْضَرُ. لَا يُشْبِهُكَ الرَّيُّونُ، لَا يَمْشِي إِلَيْكَ  
الظَّلُّ، لَا تَنْسُجُ الْأَرْضُ لِرَايَاتِ صَبَاحِكَ.  
الْأَخْضَرُ أَنْتَ الْأَخْضَرُ الطَّالِعُ مِنْ مَعْرَكَةِ الْأَلْوَانِ  
وَالغَابَاتِ رَيْشٌ فِي جَنَاحِكَ

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان "الرجل ذو الظل الأخضر" في ذكرى جمال عبد الناصر<sup>(6)</sup>:

وَلَسْتُ نَبِيًّا  
وَلَكِنْ ظِلُّكَ أَخْضَرُ  
أَتَذَكَّرُ؟  
كَيْفَ جَعَلْتَ مَلَامِحَ وَجْهِ  
وَكَيْفَ جَعَلْتَ جَبِينِي  
وَكَيْفَ جَعَلْتَ اغْتِرَابِي وَمَوْتِي  
أَخْضَرَ  
أَخْضَرَ  
أَخْضَرَ...

فالشاعر يرسم صورة بصرية/ لونية للشهيد؛ إذ يُضفي عليه صبغة اللون الأخضر؛ فيجعل ظله أخضر، وكذلك موته، ودمه، وموعده، وصوته<sup>(7)</sup>؛ لكي يُخلِّده ويبيِّت الحياة فيه، ويؤكد أنه ما يزال حيًّا في النفوس بأقواله وأفعاله. وهذا الانتشار للأخضر على مساحة النص "قد أخفى الفجيرة، وخفَّف من حدة البلوى، وصار الحديث ليس عن حياة فانية، وإنما عن حياة باقية زاهية"<sup>(8)</sup>.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنَّ لون الأخضر مرجعيات أسطورية تتعلق بلون أوزيريس، "الذي عاود الحياة، وتقمَّص روح الاخضرار، تلك التي تذوي وموت مع الحصاد، لتعاود الولادة مع كل الأزهار الجديدة"<sup>(9)</sup>. فالشَّهيد رمز له - كما أشرنا سابقاً - وقد تجلَّت هذه الصورة الرمزية الأسطورية بشكل واضح في القصيدة السابقة، وقصيدة "عائد من يافا"، وقصيدة "وتحمل عبء الفراشة" وقصيدة "نشيد إلى الأخضر"، حيث يقول<sup>(10)</sup>:

جَدُّ أَيْبَا الْأَخْضَرُ مَوْتِي  
إِنَّ فِي جُنَّتِي الْأُخْرَى قُصُولاً وَبِلَادَ  
أَيْبَا الْأَخْضَرُ فِي هَذَا السَّوَادِ السَّائِدِ، الْأَخْضَرُ فِي بَحْثِ  
الْمُنَادِيْلِ عَنِ النَّيْلِ وَعَنْ مَهْرِ الْعُرُوسِ  
الْأَخْضَرُ الْأَخْضَرُ فِي كُلِّ الْبَسَاتِينِ الَّتِي أَحْرَقَهَا السُّلْطَانُ  
وَالْأَخْضَرُ فِي كُلِّ رَمَادٍ

## 2- صورة الدَّم

لعلَّ صورة الدَّم من أبرز صور الشَّهيد، التي ركَّز عليها الشاعر. فالدَّم هو جسر العودة إلى الأرض والاتحاد معها، و"الطريق إلى الطريق" كما يقول<sup>(11)</sup>، أي طريق التحرير، وهو بريد الأنبياء؛ لأنَّه يحمل رسائلهم الخالدة، التي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن الأوطان، ورفع

(1) إسماعيل، عز الدين، التفسير النفسي للأدب، مكتبة دار العودة، بيروت، 4، 1981، ص 65.

(2) مختار، "الدلالات الاجتماعية والنفسية لألفاظ الألوان في اللغة العربية"، سلسلة اللسانيات، تونس، 6، 1986، ص 48.

(3) مختار، "الدلالات الاجتماعية والنفسية لألفاظ الألوان في اللغة العربية"، ص 48.

(4) انظر: أبو حميدة، محمد، الخطاب الشعري عند محمود درويش: دراسة أسلوبية، ص 141، وأبو خضرة، سعيد، تطور الدلالات اللغوية في شعر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 2001، ص 117.

(5) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "نشيد إلى الأخضر"، من ديوان "أعراس"، ص 325.

(6) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "الرجل ذو الظل الأخضر"، من ديوان "حبيبتي تنهض من نومها"، ص 175، وانظر قصيدة "الجسر"، من ديوان "حبيبتي تنهض من نومها"، ص 172، وقصيدة "عائد إلى يافا"، من ديوان "أحبك أو لا أحبك"، ص 193، وقصيدة "نشيد إلى الأخضر"، من ديوان "أعراس"، ص 325.

(7) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 137، 172، 191، 193، 201، 282.

(8) انظر: أبو حميدة، محمد، الخطاب الشعري عند محمود درويش: دراسة أسلوبية، ص 143.

(9) عبد الحكيم، شوقي، موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ص 75، وانظر: تيبو، روبرج جاك، موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية، ص 20، وسرينج، فيليب، الرموز في الفن - الأديان - الحياة، ترجمة: عبد الهادي عباس، دار دمشق، دمشق، ط 1، 1992، ص 422، وبدج، والاس، آلهة المصريين، ترجمة: محمد حسين يونس، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994، ص 174.

(10) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "نشيد إلى الأخضر"، من ديوان "أعراس"، ص 325.

(11) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 171.

الظلم والطغيان، وهو كذلك لغة التخاطب مع الغزاة. إنه باختصار القوة الفاعلة المؤثرة، التي تُحقق طموحات الشاعر وآماله كلها، وتُعبّر عن رؤيته وحلمه، الذي لا يتحقق إلا عبر شلال متدفق من الدّم، حيث يقول في قصيدته "الخروج من ساحل المتوسط"<sup>(1)</sup>:

يَا أَيُّهَا الرُّعَمَاءُ.. لَا تَتَكَثَّرُوا!

لَيْسَتْ عِظَامِي مِئْبَرًا.

فَدْعُوا دَمِي - حَبْرَ التَّفَاهُمِ بَيْنَ أَشْيَاءِ الطَّبِيعَةِ وَالْإِلَهِ

وَدْعُوا دَمِي - لُغَةَ التَّخَاطُبِ بَيْنَ أَسْوَارِ الْمَدِينَةِ وَالغَزَاةِ

دَمِي بَرِيدُ الْأَنْبِيَاءِ

إنّ الشهداء يروون الأرض بدمائهم الغالية، الطاهرة "الطّازجة"<sup>(2)</sup> على حد قوله؛ فيبثون فيها الحياة والخصوبة، ويُسمّدون بها الليل لينبجس النور من الظلام، ويبين الحق ويعلو؛ لذا راحوا يتوسلون بألّ يهال التراب عليها، يقول في قصيدة بعنوان "عيون الموتى على الأبواب"<sup>(3)</sup>:

فِي اللَّيْلِ دَقُّوا كُلَّ بَابٍ..

كُلَّ بَابٍ.. كُلَّ بَابٍ

وَتَوَسَّلُوا أَلَّا نَهَيْلَ عَلَى الدَّمِ الْعَالِي التُّرَابِ

قَالَتْ عَيُونُهُمُ الَّتِي انْطَفَأَتْ لِتَشْعَلَنَا عِتَابُ:

لَا تَدْفِنُونَا بِالنَّشِيدِ، وَخَلِّدُونَا بِالصَّمُودِ

إِنَّا نُسَمِّدُ لِيَلِكُمْ لِبِرَاعِمِ الضَّوِّ الْجَدِيدِ

فهم يريدون أن يبقوا حاضرين في النفوس، شامخين كأعمدة الضياء؛ ليُنبروا للأجيال القادمة طريق الحرية، والثورة، والخلود "خلود الشوق والغضب"<sup>(4)</sup>، ويريدون كذلك أن تبقى دماؤهم لافته الطغاة والغزاة، التي تُظهر عنفهم ووحشيتهم، وتُبرهن لهم عشق الشهداء للموت، والتضحية، والفداء، ونذراً للجيال الخضر، تحمل معنى التحدي والمقاومة، والإصرار على الحياة والانبعاث، حيث يقول في قصيدته "الموت مجاناً"<sup>(5)</sup>:

وَمِنَ الدَّمِ الْمَسْفُوكِ أَدْرَعَةٌ تُنَادِي: تَعَالِ!

فَلْتَرْفَعِي جِيداً إِلَى شَمْسٍ تَحَنَّتْ بِالْدمَاءِ

لَا تَدْفِنِي مَوْتَاكِ!.. خَلِّهِمْ كَأَعْمَدَةِ الضِّيَاءِ

خَلِّي دَمِي الْمَسْفُوكَ.. لَافَتَةَ الطُّغَاةِ إِلَى الْمَسَاءِ

خَلِّهِ نِذْراً لِلْجِبَالِ الْخُضْرِ فِي صَدْرِ الْفُضَاءِ!

وإنّ دماء الشهداء سرعان ما تندغم/ تمتزج بالتراب، وتختلط بذراته اختلاطاً عجبياً؛ فيصير دماً طازجاً يمشي في وضوح النهار؛ فيُخصب الأرض، وتُنبت أشجارها، وأعشابها، وأحجارها، ويُخرج قمحها وكرمها. وصوت الشهداء يعلو ويشتد، ويصرخ في وجه العدو المحتل: "تحيا بلادي من الصفر حتى الجليل!"؛ ليُحاصره من تحت الأرض وفوقها، وتُثبت له أنّ إخماد النشيد، وإفناء الإنسان، وسلب الأرض وعيشه أمناً مستقراً عليها أمر مستحيل"<sup>(6)</sup>، حيث يقول في "قصيدة الأرض"<sup>(7)</sup>:

-أَيْنَ حَفِيدَاتِكَ الدَّاهِبَاتُ إِلَى حَبْهِنِ الْجَدِيدِ؟

-ذَمَّيْنِ لِيَطْفُنَ بَعْضَ الْحَجَارَةِ -

قَالَتْ حَدِيدَةٌ وَهِيَ تَحْتُ النَّدى خَلْفَهُنَّ.

وَفِي شَهْرِ آذَارِ يَمْسِي التُّرَابِ دَمًا طَازِجًا فِي الظَّهِيرَةِ...

خَمْسُ بَنَاتٍ يُحَبِّبْنَ حَقْلًا مِنَ القَمْحِ تَحْتَ الضَّفِيرَةِ...

يَقْرَأْنَ مَطْلَعِ أَنْشُودَةٍ عَنِ دَوَالِي الخَلِيلِ. وَيَكْتَنِبْنَ

خَمْسَ رَسَائِلَ:

تَحْيَا بِلَادِي

مِنَ الصَّفْرِ حَتَّى الْجَلِيلِ

(1) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "الخروج من ساحل المتوسط"، من ديوان "محاولة رقم 7"، ص 234.

(2) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 320.

(3) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أزهار الدم - عيون الموتى على الأبواب"، من ديوان "آخر الليل"، ص 104.

(4) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 53.

(5) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أزهار الدم - الموت مجاناً"، من ديوان "آخر الليل"، ص 101-102.

(6) الزعبي، أحمد، الشاعر الغاضب "محمود درويش": دراسات في دلالات اللغة ورموزها وإحالاتها، (د.ن)، عمان، ط 1، 1995، ص 148.

(7) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "قصيدة الأرض"، من ديوان "أعراس"، ص 320.

"فخديجة" وحفيداتها كما يتجلى في النص قُتلَ ولم يمِت، ولكنهنَّ "افتتحنَ نشيدَ التراب"، الذي أصبح امتداداً لأرواحهنَّ، و"دخلنَ العناقِ النهائيَّ" بالتوحّد مع الأرض "أنا الأرض والأرض أنت"، "فانتقلنَ بذلك من العمر البشريّ المحدود إلى عمر الأرض الذي لا يشيخ ولا يُحاصر، ومن واقعهنَّ المحسوس الفاني إلى المطلق الخالد. وهكذا انهارت حدود الواقع المنطقية، ونشأت حدود جديدة لا تعترف بالزمن، والحدود المادية المنطقية؛ فالفتيات أصبحن يقطفن الحجارة بدل الزهور، ودمأوهنَّ توحدت مع التراب؛ فأصبح يمشي في الظهيرة"<sup>(1)</sup>.

كما تختلط دماء الشّهداء بالطين، والشمس، والزهر، والليل؛ لتعيد تشكيل الواقع، وتغيّر الوجود الكوني؛ فيتبدد ظلام الليل، وتشرق شمس الأمل، وتفوح رائحة النصر، يقول<sup>(2)</sup>:

نَحْنُ نَذْكُرُكَ أَحْضِرَاراً طَالِعاً مِنْ كُلِّ دَمٍ  
طِينٍ..وَدَمٍ  
شَمْسٍ..وَدَمٍ  
زَهْرٍ..وَدَمٍ  
لَيْلٍ..وَدَمٍ

فهذه الدماء المسفوكة في كلّ دقيقة "هي" مهر" العرس الذي يقدمه الإنسان المقاوم فوق أرضه؛ ليكتمل فرحه، ويروي أرضه، ويبعث الحياة والخصوبة ثانية فيها"<sup>(3)</sup>؛ لذا تخرج منها "أذعة تُنادي"، وتوصي بالمقاومة، واستمرار النضال، والإصرار على النصر بالشهادة، حيث يقول في قصيدته "عيون الموتى على الأبواب"<sup>(4)</sup>:

يَا كَفْرَ قَاسِمٍ! لَنْ نَنَامَ.. وَفِيكَ مَقْبَرَةٌ وَكَيْلٌ  
وَوَصِيَّةُ الدِّمِّ لَا تُسَاوِمُ  
وَوَصِيَّةُ الدِّمِّ تَسْتَعِيْبُ بَأَنَّ نَقَاوِمُ  
أَنَّ نَقَاوِمُ

فهو يُشخصُ الدّم، ويصوّره على نحو إنساني تملؤه الحركة والنشاط، إذ يطلق صرخة استغاثة مدوية، ويُقدّم وصيته للأجيال القادمة، وبذلك يرسم صورة حركية سمعية من خلال صورة الدّم البصرية.

### 3- صورة الجرح

لقد اهتمّ درويش بتصوير جراح الشّهداء اهتماماً كبيراً؛ أكسب شعره عمقاً دلاليّاً، ومنحه أبعاداً رمزية واسعة، حيث وصف تلك الجراح وصفاً دقيقاً، وبين آثار القتل في أجساد الشّهداء؛ بغية إظهار بشاعة العدو، وقسوته، ولا إنسانيته، يقول<sup>(5)</sup>:

يَحْكُونُ فِي بِلَادِنَا عَنْ صَاحِبِي الْكَثِيرَا  
حَرَائِقِي الرِّصَاصِ فِي وَجَنَاتِهِ  
وَصَدْرِهِ..وَوَجْهِهِ..  
لَا تَشْرَحُوا الْأُمُورَا!  
أَنَا رَأَيْتُ جُرْحَهُ  
حَدِّقْتُ فِي أَبْعَادِهِ كَثِيرَا...  
"قَلْبِي عَلَى أَطْفَالِنَا"

فهو يتحدث عن صاحبه الطفل، الذي ذهب دون أن يُودّع أمّه، وأحبّته، وأصحابه، ودون أن يترك لهم رسالة تطمئنهم عليه، لكنّه عاد إليهم شهيداً مكفناً، وقد أصابه رصاص العدو؛ فمزق جسده، وغيّر ملامح وجهه. وقد اتخذ الشاعر ذلك الجرح رمزاً له، وأصرّ على أن يستمرّ جرحه نازفاً، وأن يبقى "راعفاً لا يعرف الضماد طريقه إليه" على حد قوله، حيث يقول<sup>(6)</sup>:

كَانَ اسْمُهُ...  
لَا تَذْكُرُوا اسْمَهُ!  
حَلُوهُ فِي قَلْبُونَا..  
لَا تَدْعُوا الْكَلِمَةَ  
تَضْبِعُ فِي الْهَوَاءِ، كَالرَّمَادِ..  
حَلُوهُ جُرْحاً رَاعِفاً.. لَا يَعْرِفُ الضَّمَادُ  
طَرِيقَهُ إِلَيْهِ..

ويقول في قصيدة أخرى على لسان الشّهيد نفسه، مؤكداً استمرار المقاومة، وإكمال مسيرة الجهاد وسلسلة البطولة والاستشهاد؛ لبناء الوطن المجيد<sup>(1)</sup>:

(1) أبو مراد، فتحي، الرمز الفني في شعر محمود درويش، وزارة الثقافة، عمان، ط1، 2004، ص304.  
(2) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "قتلوك في الوادي"، من ديوان "أحبك أو لا أحبك"، ص201.  
(3) الزعبي، الشاعر الغاضب "محمود درويش": دراسات في دلالات اللغة ورموزها وإحالاتها، ص129.  
(4) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أزهار الدم - عيون الموتى على الأبواب"، من ديوان "آخر الليل"، ص105.  
(5) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "وعاد.. في كفن"، من ديوان "أوراق الزيتون"، ص13، وانظر: ص99، 103، 316.  
(6) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "وعاد.. في كفن"، من ديوان "أوراق الزيتون"، ص11.

هَذِي سَاعَتِي:  
يَنْشَقُّ قَبْرٌ نَمَّ أَنْهَضَ صَارِحًا:  
لَا تُوقِفُونِي عَنْ نَزِيْفِي  
لِحَظَّةِ الْمَيْلَادِ تَسْكِنِي مِنَ الْأَزَلِ، اسْتَرِيحُوا فِي جِرَاحِي  
هَذَا هُوَ الْوَطَنُ الَّذِي يَتَجَدَّدُ،  
الْوَطَنُ الَّذِي يَتَمَجَّدُ،  
اقْتَرِبُوا مِنَ الْأَشْجَارِ وَابْتَدُّوا مَعِي!

وقد أبرز درويش هذه الصورة من خلال دعوته إلى تحنيط جراح الشهداء بالندى/ رمز الخير والعتاء، وبحليب ليل لا ينام/ رمز النقاء والضياء، وبزهر الليمون/ رمز العطر والشذى، وبالحجر المدمى/ رمز المقاومة والثورة، وبريشة من طائر الفينيق/ رمز الانبعاث والحياة والتجدد. وهي صورة استعارية تجسد المشهد، وتبرزه بصورة حسية تتكامل فيها الحواس كلها وتتداخل، حيث يقول (2):

أَيُّهَا الْبَطْلُ ابْتَعِدْ عَنَّا لَتَمَشِي فِيكَ نَحْوَ نِهَائِهِ أُخْرَى. فَتَبَّأً  
لِلْبِدَايَةِ. أَيُّهَا الْبَطْلُ الْمَضْرُجُ بِالْبِدَايَاتِ الطَّوِيلَةِ قُلْ لَنَا: كَمْ مَرَّةً  
سَتَكُونُ رَحْلَتُنَا الْبِدَايَةَ؟ أَيُّهَا الْبَطْلُ الْمُسْجَى فَوْقَ أَرْغِفَةِ الشَّعِيرِ  
وَفَوْقَ صُوفِ اللَّوْنِ، سَوْفَ نَحْنُطُ الْجُرْحَ الَّذِي يَمْتَصُّ رُوحَكَ  
بِالنَّدَى: بِحَلِيبِ لَيْلٍ لَا يَنَامُ؛ بِزَهْرَةِ اللَّيْمُونِ، بِالْحَجَرِ الْمُدْمَى؛  
بِالنَّشِيدِ - نَشِيدِنَا؛ وَبَرِيْشَةٍ مَقْلُوعَةٍ مِنْ طَائِرِ الْفِينِيْقِ -  
إِنَّ الْأَرْضَ تَوَرَّتْ كَاللِّغَةِ!

فهو لا يريد لهذه الجراح أن تتوقف عن نرفها وتدققها واستمرارها؛ لأن فيها انبعاثاً جديداً، وعتاءً متجدداً، ونوراً مشعاً، وعتراً زكياً، وثورةً منتجةً فاعلةً، شعارها المجد، وطريقها النصر؛ ولذا فالشهداء يتحملون على جراحيهم، التي تصيح قائلة: "شيع الصابر صبرا!" (3)، ويصارعون آلامهم كاليسوع وأيوب - عليهما السلام - (4)، ثم يمشون بخطى واثقة وقوية مثل الشمس (5) مندفعين مقاومين؛ لتحقيق رؤيتهم وحلمهم، يقول (6):

كُفِّرْ قَاسِمِ  
إِنِّي عُدْتُ مِنَ الْمَوْتِ لِأَحْيَا، لِأَعْنِي  
فَدْعِينِي أَسْتَعْرِ صَوْتِي مِنْ جُرْحِ تَوَهْجِ  
وَأَعِينِينِي عَلَى الْحَفْدِ الَّذِي يَزْرَعُ فِي قَلْبِي عَوْسَجِ  
إِنِّي مَنْدُوبٌ جُرْحٍ لَا يُسَاوِمِ  
عَلَّمْتَنِي صَرْبَةَ الْجَلَادِ أَنْ أَمْشِي عَلَى جُرْحِي  
وَأَمْشِي..  
ثُمَّ أَمْشِي..  
وَأَقَاوِمِ!

ولظاهرة التكرار في الأسطر السابقة دلالتها الأسلوبية المعبرة، حيث كرر الشاعر الفعل المضارع (أَمْشِي) معطوفاً بحرفي العطف "الواو" و"ثم" ثلاث مرات؛ ليؤكد استمرار المقاومة وعدم توقفها. فالشهداء يدوسون على جراحيهم والآلام؛ حتى يطلع الفرح، ويتحقق الانتصار. وهم أيضاً يستعيرون أصواتهم من تلك الجراح، ويخرجون خروج المسيح من الجرح والريح أخضر مثل النبات؛ ليبتثوا الحياة في الأرض، ويرزعوها فيها الأمل والنور، يقول (7):

هَذَا أَحْضَرَارُ الْمَدَى وَاحْمِرَارُ الْحِجَارَةِ -

هَذَا نَشِيدِي  
وَهَذَا خُرُوجُ الْمَسِيحِ مِنَ الْجُرْحِ وَالرَّيْحِ  
أَخْضَرَ مِثْلَ النَّبَاتِ يَعْطِي مَسَامِيرَهُ وَقِيُودِي

وقد شبه درويش جراح الشهداء بمفاتيح الصباح، والقناديل، والشعاع المتوهج، والنور، ولوحة البرق (8). وهي صور تحمل معاني الضياء، والإشراق، والتفاؤل؛ وتبرز قداسة الشهادة وجمالها، ودور الشهداء في صنع الفجر الجديد، يقول (9):

كَانَ صَوْتُ الدَّمِ مَعْمُوساً بَلُونِ الْعَاصِفَةِ  
وَحَصَى الْمَيْدَانَ أَفْوَاهُ جُرُوحِ رَاعِفَةٍ  
وَأَنَا أَصْحَاكَ مَفْتُونًا بِمَيْلَادِ الرِّيَّاحِ

(1) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "الخروج من ساحل المتوسط"، من ديوان "محاولة رقم 7"، ص 236.

(2) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "مأساة الترحس ملهارة الفضة"، من ديوان "أرى ما أريد"، ص 527.

(3) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 34.

(4) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 78، 318، 70، 174.

(5) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 71.

(6) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "أزهار الدم - مغني الدم"، من ديوان "آخر الليل"، ص 100.

(7) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 318.

(8) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص 99، 100، 115، 88.

(9) درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، قصيدة "الأغنية والسلطان"، من ديوان "آخر الليل"، ص 115.

عِنْدَمَا قَاوَمَنِي السُّطَانُ  
أَمْسَكْتُ مِفْتَاحَ الصَّبَاحِ  
وَتَلَمَّسْتُ طَرِيقِي بِقَنَادِيلِ الجِرَاحِ  
أَهْ كَمْ كُنْتُ مُصِيبًا  
عِنْدَمَا كَرَّسْتُ قَلْبِي  
لِنِدَاءِ العَاصِفَةِ

فواجبنا نحن أن نُفاخر بشُهداءنا، الذين نقشوا أسماءهم في ذاكرة الوطن "بحروف من اللازورد"<sup>(1)</sup>، وأن نُباهي بهم الدُنيا، ونُكمل مسيرتهم نحو الهدف، "ونسرق من جراحهم القطن حتى نُلمع به أوسمة الصبر والانتظار- على حد قول درويش"<sup>(2)</sup>.

**خلاصة البحث**

يتبين مما سبق أن محمود درويش اهتم بعالم الشهداء اهتماماً كبيراً، فرسم لهم صورة واضحة المعالم، سعى من خلالها إلى تمجيدهم، وتخليد مآثرهم، وتأسيس قيم الشهادة في أرواحهم، وتعميق حب الاستشهاد في نفوس المتطلعين إلى الخلود والمجد. وأن تلك الصورة تكشف عن رؤية فلسفية عميقة لدى الشاعر فرضتها طبيعة تجربته نفسها.

لقد كانت منزلة الشهداء عند درويش في نصوصه الشعرية الأولى عالية مستقرة تعادلت من خلالها قضية الموت مع قضية الحياة، فمن موتهم تولد الحياة من جديد، ثم تطورت تلك الرؤية في نصوصه المتأخرة، إذ صار الشاعر يتحدث عن الموت البطولي أو التراجيدي، الذي بات طقساً يومياً مألوفاً، وراح يروي قصصه بكل تفاصيلها، وأشكالها، وحيثياتها على مسمع العالم؛ ليجعل منها ملحمة تراجيدية، مليئة بمآسي مصرية، تُجسد معاناة شعبه ووطنه من جهة، وتؤكد حالة الحضور الفلسطيني الشامل في وعي العالم من جهة أخرى.

وقد وظف الشاعر أجزاء من صورة الشهيد كصورة الجسد، والدّم، والجرح؛ لتكون رموزاً خصبه لاستمرار المقاومة، وإكمال مسيرة الجهاد وسلسلة البطولة والاستشهاد، والدفاع عن الأرض؛ من أجل التحرير، وتحقيق الاستقلال، وبناء الذات الفلسطينية.

واستعان درويش في رسم تلك الصورة ببعض الأساطير القديمة ذات الطابع الديني والحضاري كأسطورة: المسيح أو الصليب، وطائر الفينيق أو العنقاء، وأوزيريس. وهي رموز تُمثل روح الانبعاث، والتجدد، والحياة.

(1) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص750.

(2) انظر: درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ص192.